قراءة في قراءات «جدلية» للنص القرآني

سعيد شبار

كلية الآداب بني ملال

معلوم أن علماء الإسلام قد وضعوا شروطا علمية، وضوابط منهجية طوقوا بها النص القرآني. ولا بد للمفسر أو المأول من تحصيلها حتى تكتمل أهلية التفسير عنده. وحتى يبقى التفسير عموما منضبطا بضوابط الشرع ومقاصده العامة، دونما حجز على العقول أو وصاية على الاجتهاد. ولا شك أن تجاوز هذه الشروط والضوابط يؤدي إلى نوع من الاغراب في التفسير أو الشذوذ عن أصول الشرع ومقاصده.

بعد ان ذكر السيوطي خمسة عشرة علما من العلوم المساعدة على التفسير نقل قول ابن أبي الدنيا : «هذه العلوم هي كالآلة للمفسر، لا يكون مفسرا إلا بتحصيلها. فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأي المنهي عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرا بالرأي المنهي» [1].

وقد اختزل أبو حيان الأندلسي هذه العلوم (الشروط) قبل السيوطي في سبعة هي : القرآن، علم النحو، علم البيان، الحديث، أصول الفقه، علم الكلام، علم القراءات. ثم قال : «فهذه سبعة وجوه لا ينبغي أن يقدم على تفسير كتاب الله إلا من أحاط بجملة غالبها من كل وجه، ومع ذلك فأعلم أنه لا يرتقي من علم التفسير ذورته، ولا يمتطي منه صهوته إلا من كان متبحرا في علم اللسان» [2].

وذكر محمد عبده ورشيد رضا من المتأخرين في تفسيرهما أن المرتبة العليا من التفسير لا تتم إلا بأمور :

---

1. جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ج 2 / ص 171 عالم الكتب -بيروت.
2. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط ج 1 / ص : 5-6-7 ط 1327/2 مكتبة النصر الحديثة.

1- فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن..

2 - الأساليب : ان يكون عنده (المفسر) من علمها ما يفهم به هذه الأساليب البليغة، بممارسة الكلام البليغ، ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه.

3- علم أحوال البشر - وطبائعهم، والسنن الإلهية فيهم..

4- العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن..

5- العلم بالسيرة وأحوال الصحابة... [3]

وذكر الشاطبي أن القول في الرأي ضربان : أحدهما جار على موافقة كلام العرب، وموافقة الكتاب والسنة، فهذا لا يمكن إهمال مثله لعالم بهما. الثاني، وهو تقول على الله بغير برهان وفيه التشديد» [4]. وهو مراد ابن تيمية بقوله : «اما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام» [5].

وعلى هذه الأوجه يحمل الحديث الشريف : «من قال في القرآن بغير علم -(وفي رواية برأيه)- فليتبوأ مقعده من النار» [6].

وتجدر الإشارة إلى أنه عندما يقول ابن أبي الدنيا «لا ينبغي أن يقدم» أو يقول أبو حيان «لا يكون مفسرا»، أو يحرم ابن تيمية التفسير بمجرد الرأي (الهوى) ومع أن المراد بتحصيل كل تلك العلوم -بلوغ المرتبة العليا في التفسير- فلا ينبغي حمل ذلك على أنه سلطة، أو وصاية تحتكر تفسير النص وتأويله، وتستبدله، كما يتوهم من يريد أن يتحلل من كل شرط أو الزام علمي. فسلطة القول لا تكمن في القائل (الشخص)، وإنما في المقول (العلوم والشروط) الملازمة دوما للنص، كما أن النص لا يستمد سلطته من القائل بل من الشروط العلمية والمنهجية التي تحيط به. فهي إذن سلطة علمية تقوم على قواعد معرفية مفتوحة لكل كفء مؤهل للاشتغال بمقتضاها في النص القرآني، وهذا على خلاف السلطة المادية، سلطة الشخص والقوة، لا سلطة العلم، التي حيط بها النص التوراتي وكذا النص الإنجيلي، مما جعلها عبر التاريخ عرضة للتحريف والتبديل بما يخدم مصالح الأوصياء.

---

3. رشيد رضا، تفسير المنار ج 1 / ص 269. ط 1373/4. دار المنار.
4. أبو اسحق الشاطبي، الموافقات ج 421/3-422 دار المعرفة بيروت.
5. ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير ج 13 مجموع الفتاوي ص 46.
6. انظر سنن الترميذي، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ج 4 / ص 269/268.

يلاحظ أيضا أن كل العلوم المذكورة، ومع اختلاف أقسامها وفروعها واختلاف ورودها التاريخي، تؤكد في عناصرها الأولى.. أبو حيان في 2 و3 السيوطي من 1 إلى 7، رشيد رضا أو 2، على مسألة اللغة وما يتفرع عنها، وهو أصل تؤكده المناهج اللغوية المستحدثة فيما يعرف بـ «السياق» إذ هو «المرجع الذي يحال إليه المتلقي كي يتمكن من إدراك مادة القول» (7) كما أن العلوم الأخرى معينة ومرشدة إلى فهم المراد أو بعض من القول.

نموذج تطبيقي وأمثلة عليه

إذا كان التقديم سالف الذكر تأكيداً على معرفة تلك العلوم والشرائط لطارق دفتي القرآن. فإن الحديث عن هذا النموذج من القراءة، هو إحالة على نمط من التعامل مع النص بخلفية اديولوجية معزولة عن كل شرط أو ضابط علمي ومنهجي، وليس انطلاقا من كونه تفسيرا أو تأويلا.

أداة هذا النموذج التحليلية، المنهج المادي الجدلي التاريخي، ومجاله النص القرآني طبعا. وذلك من خلال مرجعين أساسيين :

1- «القرآن في ضوء الفكر المادي الجدلي» لمؤلفه محمد عيتاني الذي قال في مقدمته : «أود أن أعرض القيم الفكرية القرآنية في ضوء أرفع تطور للفكر العالمي الحاضر وهو منهج الفكر الجدلي» (8).

2- «جدلية القرآن» لخليل أحمد خليل الذي قال في مقدمته أيضا : «من واجبنا الاسترشاد بمنهج التحليل الجدلي للواقع التاريخي الذي استوحي فيه وله القرآن الكريم» (9).

ومعلوم أن المنهج المادي سمي بالجدلي (الديالكتيكي) لأن أسلوبه في النظر إلى حوادث الطبيعة أو طريقته في البحث والمعرفة تقوم على أساس المادة والعلاقة الجدلية، فهو يعتبر الطبيعة كلا واحداً متماسكا في حالة تجدد وتطور، ينتقل من تغيرات كمية إلى تغيرات كيفية، قائم «على أساس صراع الطبقات ونفي الاضداد. وسمي بالتاريخي لانه يوسع مبادئ هذه المادية حتى تشمل دراسة الحياة الاجتماعية للانسان، وتحدد بنيته الفكرية والتاريخية» (10).

---

7. عبد الله الفدائي، الخطيئة والتفكير، ص 75، كتاب النادي الأدبي الثقافي (27) جدة السعودية.
8. محمد عيتاني، القرآن في ضوء الفكر المادي الجدلي، ط 1981/12، دار العودة -بيروت- ص : 16.
9. خليل أحمد خليل، جدلية القرآن، ط 1977/2، دار الطليعة بيروت ص 9.
10. انظر سطالين، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية في دروس الماركسية لجلال الدين الفارسي حيث أورد الترجمة الكاملة للكتيب المذكور.

ففي قوله تعالى : «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا» [11] يذهب أنصار هذا الاتجاه إلى أن هذه الآية نسبة إلى مسألية وهي (علم طرح المسائل). وأن «القرآن في مجمله فكري مسألي، إنه يطرح من المسائل أكثر مما يريد أن يأتي بحلول، ذلك لأنه حركة فكر تطوري، بعض ابعاده مستقبلية، وذلك رغم كثرة الحلول المترابطة المتكاملة التي جاء بها في زمنه» [12]. والذي دعا إلى اعتماد هذه المنهجية، «ان الاقتصار على البعد الإيماني وحده، رغم قيمته الترسيخية يدفع الباحث إلى العديد من إمكانات التمزق الروحي» [13] وأن «الإيمانية من شأنها تكريس الامتثال والانقياد لحدث تاريخي في حياة العرب دون فهمه» [14]. وواضح هذا الانتصار من خلال الآية «لتطورية» الفكر على حساب «سكونية» المعتقد الإيماني.

نفس الملحظ نلمسه من خلال الاستشهاد باستعمالات القرآن المتنوعة للفظ المجادلة، حيث يتم توسيع دلالته حتى ينسجم مع سياق التحليل الجدلي.

فنجد المجادلة بمعنى المخاصمة في الآية : «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا» [15].

وهي المحاججة في الآية : «يوم ياتي كل نفس تجادل عن نفسها» [16].

وهي المخالفة في الآية : «إن الذين يحادون الله ورسوله» [17].

وهي المراجعة في الآية : «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها» [18].

وهي الاختيار في الآية : «يجادل في الله بغير علم» [19].

فبغض النظر عن تصويب أو تخطيء هذه المقابلات إذ استعمل القرآن الكريم مادة (جدل) في حوالي سبع عشرة صيغة بين مخاطب ومتكلم، جمع ومفرد، مذكر ومؤنث، وبمعاني متعددة، فالمهم عندنا ما توصل إليه الكاتب من خلال تطبيقه للمنهج المادي الجدلي من نتائج أبرزها، التناقض الذي يؤكده بين الواقع المادي للإنسان مع التعاليم الاعتقادية، وبعبارة أخرى

---

11. سورة الكهف، آية 54.
12. محمد عيتاني مرجع سابق ص 89.
13. نفس المرجع ص 13.
14. خليل أحمد خليل ص 28 مرجع سابق.
15. سورة الكهف آية 54.
16. سورة النحل آية 111.
17. سورة المجادلة آية 5.
18. سورة المجادلة آية 1.
19. سورة لقمان آية 20.

ان هذه التعاليم تكبل حرية العقل وتقيد فاعليته الجدلية. يقول: «إن هذه الأشكال المتنوعة للمجادلة القرآنية تضع أمامنامضامين شتى لمشكلة الجدل القديم، القائم في الدين على تناقض النمطين البشري والغيبي، تناقض الواقع المادي للإنسان العاقل، الذي يبتكر حريته خلال جدل عمله وفاعلية عقله، مع التعاليم الاعتقادية (المثالية الدينية) التي تقرر له رؤى أخرى للتناقضات والتحولات الظاهرة فيه وحوله» [20].

إذا أضفنا إلى هذا ما اسماه الكاتب بـ «الجدل الفرقاني» و «الجدل التحولي»، الأول يفرق الحق عن الباطل، والثاني متعلق بالمحكم والمتشابه، يكون الكاتب بذلك قد نسف مشروعه القائم على إثبات جدلية القرآن من الداخل، بإثبات هذا النوع من السلبية لهذه الجدلية التي تقف عائقا أمام حرية العقل وفاعليته.

والصواب أن القرآن الكريم لم يقف من «الجدل» هذا الموقف المعارض إلا في الأماكن التي يكون فيها هذا الجدل غير مؤسس على علم، أو يكون ضربا من المعارضة والعناد والكبر (ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم ان في صدورهم الاكبر ما هم ببالغيه) [21].

و(يجادلون في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) [22] وإلا فإن القرآن فتح بابا للجدال العاقل المثمر، كما في قوله تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) [23] وقوله تعالى : (وجادلهم بالتي هي أحسن) [24].

فالهوة إذن شاسعة بين «الجدل» القرآني والجدل المادي، فالجدال في القرآن له إطاره الخاص المتمشي مع النسق القرآني القائم على أسس العقيدة والشريعة، والجدل في المنهج المادي يقوم على مبدأ التنافي وصراع الاضداد داخل الطبيعة وطبقات المجتمع، ولما لم تسلم هاتان المقدمتان كان بديهيا الا تسلم النتائج، فكان ذلك الاضطراب الذي وقع فيه الكاتب حول تناقض النمطين البشري والغيبي، أو تناقض الواقع المادي مع التعاليم الاعتقادية.

---

20. خليل أحمد خليل، مرجع سابق ص 23.
21. سورة غافر آية 56.
22. سورة الأنفال آية 6.
23. سورة العنكبوت آية 46.
24. سورة النمل آية 125.

في محاولة لاعطاء مشروعية، وهذه المرة للمادية التاريخية، والتبرير على كون القرآن اشتمل على كافة خيوطها، نجد مجموعة من الفرضيات المؤسسة على شواهد قرآنية غير مناسبة أيضا (*) [25] كالتدليل على فكرة الاممية بعالمية الدعوة الإسلامية، «لأن الدعوة الإسلامية تحيط إحاطة تامة برحلة البشرية عبر الزمان والمكان». والتدليل على الحتمية التاريخية بقوله تعالى : (سنة الله في الذين خَلَوْا من قبل، وكان أمر الله قدرا مقدورا) [26].

والتدليل على الصراع الطبقي بالآية : (ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) [27] والآية : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) [28]. وإن الصراع الطبقي ناتج عن شهوة التملك والأنانية بدليل الآية : (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) [29]، وان ظهور الطبقات وتسلط بعضها على البعض الآخر تدل عليه الآية : (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليومنوا بما كذبوا به من قبل) [30]، وان ظاهرة التشبث بالامتيازات الطبقية تدل عليه الآية : (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون) [31] «هكذا انطوى القرآن الكريم على كافة خيوط المادية التاريخية، أكثر النظريات المستحدثة علمية في تفسير التاريخ» [32].

وواضح ما في هذا الاستدلال من تكلف يعتمد أساسا على منهج تجزيئي انتقائي للنصوص وتوظيف لها غير مناسب. ويمكن اعتبار هذا الاستدلال -حسب الدكتور سبيلا في وظائف الاديولوجيا- نوع من البرهنة بالسبب الكاذب، ففرق كبير بين الأسس والمبادئ، ووسائل الحوار والتبليغ التي يقوم عليها الفكر الاممي والشمولي والتي عليها عالمية الدعوة الإسلامية. والاتفاق بين الشمول والعالمية شكلا لا يبرر الاتفاق بينهما مضمونا وجوهرا. والأمر نفسه يصدق على مقابلة الحتمية التاريخية بالسنن الإلهية كونية أو شرعية، وعلى مطابقة الصراع الطبقي بمبدأ التدافع في الأرض، ومفاهيم الاستضعاف والاستكبار والعلو وغيرهما.

---

*. الإحالة هذه المرة إلى محمود إسماعيل في : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي.

25. انظر محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الرسلامي، محاولة تنظير، ط 1/1400-1980، دار الثقافة ج 1 / ص 241-240 بتصرف.

26. سورة الأحزاب آية 38.

27. سورة البقرة آية 251.

28. سورة القصص آية 5.

29. سورة العلق آية 6-7.

30. سورة الأعراف آية 101.

31. سورة سبأ آية 34.

32. محمود إسماعيل، مرجع سابق ج 1 / ص 41.

وبعيدا عن المقابلات يذهب أنصار هذا الاتجاه إلى أن هذا القول : «لو كان كل ما في الأرض شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده ما نفدت كلمات الله» [33] والمقصود الآية الكريمة : (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) [34] تدل على «لا تناهي الفكر» ويؤكدون ذلك بالآية الأخرى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) [35] بأن هذه الرؤية «هي رؤية جدلية تؤكد على لا نهاية الطبيعة وحركة المجتمع والفكر في معرض تأكيدها على لا تناهي كلمات الله» [36]. فرغم تصريح الآيات بنفاد البحر والأشجار، يوسع الكاتب الدائرة ليؤكد على لا تناهيها، وعلى لا تناهي الطبيعة والفكر وحركة المجتمع وهي رؤية -كما هو واضح- موجهة بتفسير مادي يسعى إلى نفي اليوم الآخر والبعث والنشور.

وإذا ما ألقينا نظرة على تفاسير العلماء «المتجاوزة» بخصوص الآيتين المذكورتين نجد صاحب الكشاف يذهب إلى أن المعنى : «لو أن أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر (مداد)، وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله، لما نفدت كلمات الله ونفدت الأقلام والمداد» [37] «مشهد كوني يرمز إلى غنى الله الذي لا ينفد وعلمه الذي لا يحد» [38] «إنه مشهد منتزع من معلومات البشر ومشاهداتهم المحدودة ليقرب إلى تصورهم معنى تجدد المشيئة الذي ليس له حدود، والذي لا يكاد قصورهم البشري يدركه بغير هذا التجسيم والتمثيل» [39]، انه «المحدود يواجه غير المحدود» [40] هكذا ينقلب التفسير من «لا تناهي الفكر والطبيعة» إلى تناهيهما تمشيا مع النسق القرآني العام الذي يشد بعضه إلى بعض، ويفسر بعضه بعضا.

كما أن التماس سبب نزول قوله تعالى «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام...» يعين على فهم المراد من الآية ف. «عن ابن عباس رضي الله عنهما ان احبار يهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : يا محمد أرأيت قوله (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) [41]،

---

33. محمد عيتاني، مرجع سابق ص 48.
34. سورة لقمان آية :27.
35. سورة الكهف آية :109.
36. محمد عيتاني مرجع سابق ص :21.
37. الزمخشري ج 3 /ص 501.
38-39-40. سيد قطب في ظلال القرآن ج 6 ص 494.
41. سورة الإسراء آية :85.

ايانا تريد أم قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا. فقالوا : الست تتلو فيما جاءك، انا قد اوتينا التوراة فيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم فأنزل الله عليه فيما سألوه عنه من ذلك (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام...) الآية [42] وفي هذا السبب ما يكفي لبيان ما تقدم.

أختم بمسألة تثير انتباه الدارس لهذه القراءة التي تتصدى لتحليل الخطاب القرآني وفقا لتلك المنهجية، أقصد عدم أمانتها في نقل نصوص القرآن نفسه نقلا صحيحا، إذ جل النصوص ان لم نقل كلها مشوه مبتور سقطت منه كلمات. بل آيات.. بل أحيانا نجد وضعا لكلام لا وجود له في القرآن، وهذه بعض الشواهد على سبيل المثال لا الحصر :

* «فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة فقيرا ذا مقربة، أو مسكينا ذا مقربة» [43].

وصوابها (فك رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيما ذا مقربة، أو مسكينا ذا متربة) [44].

* «الذين قصصنا عليك أنباءهم والذين لم نقصص» [45] ولا وجود لهذه الآية في القرآن بهذا اللفظ، ولعل كاتبها يقصد (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) [46] أو (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) [47].

---

42. الطبري، جامع البيان. مج 10/51-52.
43. محمد عيتاني، مرجع سابق ص 19 والكاتب لا يخرج الآيات، وقال «معذرة إذا كنت لا أشير إلى كل آية في موضعها من الكتاب، فذلك سوف يثقل النص دون طائل» ص 74.
44. سورة البلد آية 13-16.
45. محمد عيتاني، مرجع سابق ص 11.
46. سورة غافر آية : 78.
47. سورة النساء آية : 146.

* «آية لهم في الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون، جنات نخيل وأعناب وفجرنا فيها العيون» [48].

وصوابها : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون) [49].

* «فإذا كذبتكم فلن يبالي الله بكم، فإن كذبكم يلزمكم» [50].

قال قبلها «جاء في الكتاب الكريم»، ولا نعلم لهذه الآية وجودا في الكتاب الكريم الذي هو القرآن.

* «ولا أقسم بالقيامة والنفس اللوامة» [51].

وصوابها (لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة) [52].

والأمثلة بهذا الصدد كثيرة نكتفي منها بما تقدم.

48. عيتاني، نفس المرجع ص 41.
49. سورة ياسين الآيات 32-33-34.
50. عيتاني نفس المرجع ص 54.
51. عيتاني ص 60.
52. سورة القيامة : 1-2.